

"خلاصات وملاحظات على الحركة القومية والصحوّة الإسلاميّة"

(ندوة آراء في "مركز الحوار العربي- تاريخ ١٢/٧/١٩٩٩)

وفي البرنامج الإذاعي: "قضية وحوار" - أعداد صبحي غندور

تقييم الطروحات الفكرية التي سادت في المنطقة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين كان محور ندوة الآراء حول "خلاصات وملاحظات على فكر الحركة القومية والصحوّة الإسلاميّة" التي أعدّها لها مدير "مركز الحوار العربي" بواشنطن، وشارك فيها كلُّ من الدكتور طه جابر العلواني رئيس "جامعة العلوم الإسلاميّة والاجتماعية" في فرجينيا، والدكتور كلوفيس مقصود رئيس "مركز الجنوب العالمي" في الجامعة الأميركيّة في واشنطن، والأسّاذ صادق سليمان، وهو كاتب ومفكر وسفير سابق في واشنطن.

قدّم صبحي غندور مدير "مركز الحوار العربي" لندوة الآراء هذه بطرح التساؤلات الآتية: "إننا اليوم على عتبة قرنٍ جديدٍ وألفية جديدة، لكن هل سيدخل العرب القرن الجديد في ظل هويةٍ قوميةٍ واضحةٍ ومحسومة، وأيضاً في إطار مشروع حضاري محدد؟ وهل استطاعت الطروحات العربية الفكرية في القرن العشرين أن تضع أمام الأجيال العربية الجديدة رؤيا فكرية سليمة تستطيع هذه الأجيال أن تعمل في ظلها لبناء مستقبل عربي أفضل؟ وبتحديدٍ أكثر هل استطاعت الطروحات القومية في هذا القرن ثم أيضاً ما اصطُح على تسميته بالصحوّة الدينيّة في الربع الأخير منه، هل استطاعت هذه الطروحات القومية والدينيّة -إن صحَّ التعبير- بناء الأسس الفكرية والثقافية السليمة للعرب حاضراً ومستقبلاً؟

*صادق سليمان

هذه التساؤلات وغيرها شكّلت مدار البحث في ندوة آراء حول: "خلاصات وملاحظات على فكر الحركة القومية والصحوّة الإسلاميّة". وكان للأسّاذ صادق سليمان مداخلة في البداية تعرّض فيها بالفرز للإيجابيات والسلبيات القائمة في كلِّ من الحالتين القومية والدينيّة، واصفاً هذا الفرز بأنه ضرورة للتمييز بين الغث والسمين في كل منهما. ومما ورد في مداخلته من حيث التقييم لهذه الطروحات والتأكيد على الفائدة في طرق هذا الموضوع في ظل التعامل مع الظروف العربية والدولية الجديدة الآتي :

" إنني اعتبر المسألة العربية والمسألة الإسلاميّة لصيقتين، لا يكتمل النظر في أي منهما دون النظر في الأخرى، ومع ذلك لغرض التحليل لعلي أتعامل مع كل من التيار القومي العربي والتيار الإسلامي على حدة ثم أحاول أن أورد ما أرى بينهما من تلاقٍ في نهاية هذه الخلاصة. ساد في الواقع -كما نعلم- وعلى مدى ثلاثة عقود أي منذ مطلع الخمسينات إلى نهاية السبعينات التيار القومي للخبرة العربية . كانت لهذا التيار حسنات إلى جانب سيئات . من حسناته طبعاً أنه دفعنا إلى التحرر من السيطرة الأجنبية وحفزنا على مجابهة العدوان الصهيوني الأثيم. وبتقدير في الواقع أنه لولا هذا الصمود الجماعي على مدى عقودٍ ثلاثة متتالية لنال منا العدو

أضعاف ما نال، ولما أمكن -وأعتقد هذه نقطة جديرة بالالتفات- تأميم النفط العربي واستيفاء القيمة المنصفة له، الأمر الذي أسعف الحال القومي وعزز وضع الأمة ولو لحين. ومن حسنات التيار القومي أيضاً أنه حرك في الحياة العربية سياقاً تضامنياً أدى إلى العديد من صيغ التعاون، كما في مجالات العمالة والمهارات الحرفية والخبرات العلمية والمساعدات الاقتصادية وغير ذلك. وأيضاً كان لهذا التعاون دور أساسي في إنهاض مشاريع تنموية هامة كما في مجالات الصحة والتعليم وغير ذلك وفي إطار نفع متبادل بين أقطار الوطن الكبير. أحسب أيضاً للتيار القومي أنه عزز الثقافة العربية بوجه عام، وفي مجتمعات الخليج تحديداً في تقديري أنه لولا تدفق كثرة عربية مع ظهور النفط وازدياد العمران لضعف الطابع العربي الثقافي أمام الطابع غير العربي والذي كان ينتمي بدوره بتكاثر مماثل في هذه المجتمعات الصغيرة. لكن كانت هناك أيضاً سيئات للتيار القومي على الطرف المقابل، وأخشى أن تكون في التصفية النهائية قد أذهبت الحسنات. فقد جاء عبث التيار القومي وتفاقم وأضر كثيراً بشكل عزوف كامل عن الإصلاح السياسي وبشكل ممارسات قمعية وبشكل إهمال خطير للتحصيل العلمي وبشكل اغترار متسرع ببعض إنجازات ومكاسب وبشكل إخفاق في ضمان حقوق المواطنة وبشكل إعطاء المؤسسة العسكرية بروزاً أغرى المتوافدين في هذه المؤسسة بانتزاع السلطة بالقوة بانقلاب إثر انقلاب.

هذا على الصعيد القومي، وكذلك أرى بالطبع عندما أنظر إلى التيار الإسلامي الحال أيضاً على جانب إيجابي وآخر سلبي. فعلى الجانب الإيجابي إن التيار الإسلامي قد حرك بشكل ما قراءة أكثر استنارة لمقاصد الإسلام وبدأ يستعيد التركيز على مبادئ الإسلام وقيمه حيث ينبغي أن يكون التركيز. أيضاً أرى من إيجابياته أنه ولد نشاطاً ملحوظاً في تعريف الإسلام إلى مختلف الثقافات ونشر معرفة عنه بمختلف اللغات الأجنبية كدين عظيم وكحضارة كبرى من حضارات الإنسان. هذا التعامل الذي اعتبره الأوعي والأرشد والأكثر إبرازاً لعالمية الإنسان -والعالمية كما نعلم صفة أصيلة من صفات الإسلام- أراه في الغالب يأتي في طروحات المفكرين المسلمين والبعض من غير المسلمين ممن يدرسون الإسلام دراسة أدق من موقع أهلية معرفية أجدر وباستنباط مستقل محكم.

ويتابع الأستاذ صادق سليمان قائلاً: " أما الجانب السلبي للتيار الإسلامي -كما أراه- فهو ما يروج في خطابه من قراءة أراها ضيقة بل قاصرة للمدارس الفكرية في الإسلام ولمقاصد الإسلام في إصلاح حال الإنسان على الإطلاق. هناك في رأيي غياب في الخطاب الإسلامي لتثمين المعرفة وتأكيد السعي لتحصيلها كأولوية لا يساموم فيها. وهناك تجاهل في هذا الخطاب لمبادئ الشورى والمساواة وكرامة الإنسان، وهذه كما نعلم مبادئ إسلامية أصيلة لا تزال تبحث عن ترجمات صادقة لها في الخبرة الإسلامية وبالأخص لدى الأمة العربية ذات الموقع المركزي في الإسلام. وهناك أكثر من هذا وذاك عنف وغلو في التيار الإسلامي لا أجد له محلاً من الدين الحنيف".

*كلوفيس مقصود

أما الدكتور كلوفيس مقصود - وهو من المفكرين القوميين الذين ساهموا بشكل عملي ولسنوات طويلة في المسيرة التي يطلق عليها اسم الطروحات القومية، كما أنه من المعروفين في مجالات متعددة بالحرص على ربط

الطرح القومي بمضمون حضاري إسلامي- فقد ذكر في هذه الندوة أهمية الحرص على عالمية الإسلام اليوم إلا أنه أكد أيضاً ضرورة الحرص على عدم عولمة العروبة. وفي شرح هذه الفكرة الأخيرة قال الدكتور كلوفيس مقصود:

" أعتقد أن عالمية الإسلام هي دليل على كون الإسلام كحضارة وكدين وكممارسة روحية وكأساس لثقافات متعددة... له طابع عالمي وإنساني، وبالتالي فهو يُؤنسن من يتبع أو يلتزم بالحضارة الإسلامية أو من يمارس الدين الحنيف الإسلام. لذلك أعتقد أن كلمة "العالمية" هي مناقضة إلى حد كبير للعولمة، فالعولمة تُخرج الإنسان من السوق، السوق/الاقتصاد، السوق/الاجتماع، تخرجه منها لكي تتيح لعوامل السوق أن تسيب المجتمعات أو أن تتفاعل معها. وهنا أعتقد أن الانبهار بالعولمة من شأنه أن يشكل خطراً على مستقبل الأمة العربية والتكامل العربي الاقتصادي والسياسي والاجتماعي. لذلك أردت التفريق ما بين العالمية التي هي مشروع حضاري إنساني، وبين طرح العولمة الذي هو مشروع هيمنة السوق والعوامل اللاشخصية على التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي. أعتقد أنه ما حصل مؤخراً في سياتل أثناء مؤتمر التجارة العالمي هو دليل على نزعة التمرد العالمية على العولمة، العولمة التي تعمل على التفريق بين الإنسان والسوق أو التفريق بين الإنسان وأهدافه وبين متطلبات التنمية. النمو الاقتصادي مطلوب ولكن في خدمة التنمية الاجتماعية والشعوب، وليس العكس بل أن تخضع التنمية للشعوب لصالح عولمة الاقتصاد وعولمة الشعوب".

وعن "عولمة العروبة" أشار الدكتور كلوفيس مقصود في توضيح لها أنها "الانبهار والتقليد وعدم التجدد، والعولمة هي من هذه الناحية محاولة لاصطناع الحداثة دون أن تكون قادرة على التفاعل، هي الرديف للظلامية، والظلامية هي التعبير عن الكبت، والعولمة هي إحدى مسببات الكبت، وبالتالي هذا الاستقطاب بين الظلامية والعولمة المزورة تشكل خطراً على مناعة الأمة العربية ومناعة المجتمعات العربية في إستشراف مستقبلها والتخطيط لمستقبل هذه الأمة، وهذا هنا يعني أننا نلتزم قيماً عالمية مثل حقوق المرأة وحقوق الإنسان وتلبية حاجات الإنسان، هذه شؤون عالمية حضارية، ومن جهة ثانية نحاول أن نتفاعل مع العالم حتى يصبح العالم جزءاً من وعينا ونصبح نحن كأمة عربية جزءاً من وعي العالم، أما العولمة فهي تلغي الهوية إلى حد ما، وتتيح لعوامل السوق إلى حد كبير بأن تفعل فعلها دون تفاعل الإرادة الإنسانية مع عملية التطور والنشوء".

وفي معرض تقييمه للطروحات القومية ذكر الدكتور مقصود "أن القومية هي حركية، هي دليل الانتماء إلى أمة عربية ومصير عربي مشترك، وحركة تحرير وتأمين مساواة المجتمع العربي مع المجتمعات العالمية. أما القومية كعقيدة متكاملة وفلسفة فهي تشكل تأكيد ما يميز الإنسان عن الآخر، وهذا ما يلتقي مع المفهوم التحرري والإنساني والحضاري للقومية العربية التي نسعى لتأكيداتها. ولكن أيضاً يجب أن ندرك أن القومية العربية مرت بمراحل بحيث لا بد لها من نقد ذاتها إذ أننا في سبيل التحرير قبلنا بتعليق الحريات، وكان هذا خطأ كبيراً فيما يتعلق بمصير الحركة العربية، وهذا أدى بدوره إلى أن ترتبط فكرة القومية العربية والهوية العربية بأنظمة القمع وبالفتل أمام المشروع الصهيوني. ولذلك لا بد من إعادة تركيب الخطاب الجديد للقومية العربية ولمرجعية

القومية العربية لكي نتبنى مسائل وقضايا مستقبلية تتعلق بحقوق الإنسان وحاجاته في التنمية وبأن التنمية هي حق من حقوقه، وأن نوفر للمرأة المشاركة الكاملة في الحياة العامة وفي صناعة القرارات - لا على سبيل الأمركة أو التزوير - بل لأنها حق من حقوقها... هذا إذا أراد المجتمع أن يصنع تاريخه بدل من أن يجيز للآخرين صناعة التاريخ له".

*طه جابر العلواني

أما الدكتور طه جابر العلواني، وهو مفكر وكاتب وعالم في الفقه الإسلامي، وحالياً يرأس جامعة العلوم الاجتماعية والإسلامية في فرجينيا، فقد أكد على ضرورة الإبداع الفكري ووقف منهج التقليد السائد لدى معظم الطروحات الفكرية العربية وبأشكال مختلفة وتيارات مختلفة، وأشار أيضاً إلى أهمية حصول تغيير في بنية العقل العربي. هذا وقد تطرق الدكتور العلواني في مداخلته إلى الموصفات التي يرى لزوم وجودها في البنية الفكرية العربية الجديدة على ضوء ذلك، فقال:

" بداية أود التأكيد على أن فكر النهضة الإصلاحي الذي نستطيع أن نعتبر بداياته منذ ١٧٩٨ مروراً بالفترة التي تلت ذلك حتى عام ١٩٥٠، هذا الفكر لم يتجذر بمدارس ولم تحمله مدارس محددة في الواقع العربي والإسلامي، وتلاه في عام ١٩٥٠ أو قبلها حتى بسنتين أو أكثر بقليل الفكر الذي يسمى بالفكر الثوري أو فكر الثورة الذي أقام بنيانه على أنقاض النهضة الإصلاحية والذي امتد حتى عام ١٩٦٧. المراحل هذه حينما نحاول أن نبحث فيها عن الأفكار المطروحة، عن المشاريع الإصلاحية المطروحة، نجد دائماً أن المحور هو الآخر والمحرك هو الآخر، يعني ليس هناك اندفاعاً ذاتياً، ليس هناك عملية إبداع، ليس هناك مشروعاً محدداً تبنته الأمة وتحاول أن تجد وسائلها أو سبيلها إلى تنفيذه، وإنما هو رد فعل لما يفعله الآخرون. أما على المستوى القومي أو مستوى الفكر القومي نستطيع أن نلاحظ أن في نهايات القرن الأخير وبدايات هذا القرن كانت الثقافة التي سادت العالم في هذه المرحلة ثقافة ذات طابع يمكن وصفه بأنه طابع قومي على سبيل الإجمال، فالقومية حينما برزت في أوروبا بطبعتها المختلفة، الطبعة البريطانية والطبعة الفرنسية والطبعة الألمانية على اختلاف بين هذه الطبعات، نجد أن ذلك انعكس تماماً على واقع النخبة العربية، وقامت حتى توجهاتها القومية متسمةً بسمات المدارس الثلاث التي أشرنا إليها. حينما انتهت تلك المرحلة في عام ١٩٦٧ أصيبت الأمة بخيبة أمل وأدركت أن قرناً من عمرها قد مرَّ في محاولات للإصلاح وفي محاولات للنهضة ولكن هذا القرن لم يؤت ثمرةً من الثمار المرجوة. نعم أنا أستطيع أن أتفهم أطروحة أخي وصديقي العزيز الأستاذ صادق سليمان المتفائلة في مسألة السلبي والإيجابي، نعم هناك سلبي وإيجابي، وربما نستطيع أن نجد نوعاً من التوازن بينهما، لكن الذي أفتقده هو الإبداع، أن يكون لهذه الأمة مشروعاً أبدياً عقولها، عانت فيه، اجتهدت به، واستطاعت أن تقدمه مشروعاً متكاملًا يحقق مشروعاً حضارياً عمرانياً يتناسب مع الخصائص الذاتية لهذه الأمة ويستطيع أن يلبي طموحاتها. بعد عام ١٩٦٧ حينما برزت الصحوة الإسلامية أو التيار الإسلامي، يؤسفني أيضاً أن لاحظ أن هذا البروز جاء انعكاساً لتحرك ديني شامل في العالم كله. فقد كانت هناك صحوة دينية على مستوى عالمي انعكست

علينا. هذا كله يؤكد أن لدينا مشكلة هي مشكلة التقليد، هي مشكلة الانتظار والتوقع والترقب حتى يفعل الآخر شيئاً لنقوم نحن بفعل شيءٍ كرد فعل لذلك الفعل، ومثل هذه التحركات لا يمكن أن تكون كافيةً لبناء مشروع حضاري يؤدي إلى نهضة الأمة. من هنا أنا أشعر بتعاطفٍ شديد مع أطروحة الدكتور كلوفيس مقصود حول عالمية الإسلام لا عولمة العروبة. نعم الإسلام قادر على تقديم مشروع إصلاحٍ لا على المستوى العربي وحده بل على مستوى عالمي بما يحمله من قيم عليا، بما يحمله من قيم حاسمة، بما يحمله من منهج قرآني ومنطق قرآني وشريعة تخفيفٍ ورحمة قادرة على أن تلبى احتياجات البشرية إلى حدٍ كبير، بقطع النظر عن بعض الفروق أو بعض الاختلافات، فالعولمة هي انطلاق من مركزٍ من CENTER غربي أو "المركز الغربي"، العالمية لا تنظر إلى العرب أو إلى المسلمين على أنهم مركز وإنما على أنهم حملة مشعل، حملة رسالة، يمكن أن يقدموا عناصر الهداية إلى العالم دون أن يستقطبواهم استقطاباً ذاتياً حولهم كقومٍ أو كعصرٍ أو كأمةٍ كما يفعل المركز، المركز الغربي هنا يحاول أن يلغي خصوصيات العالم ليجعلهم يدورون حوله كمركزٍ عالمي، ومن هنا تخسر هذه الشعوب خصوصياتها بينما لا تخسر ذلك في إطار عالمية الإسلام".

صحي غندور

وأشار صحي غندور، مدير "مركز الحوار العربي"، في ختام الندوة إلى إن الأطروحة القومية طغى عليها في الخمسينات والستينات، الطابع التحرري العام ضد النفوذ الأجنبي، وكانت هذه سمة إيجابية طبعاً عززت من جماهيرية الطرح القومي بين المحيط والخليج، ثم دخل البعد الإجماعي على الأطروحة القومية ليصبح الحديث عن الإلتناء القومي مرادفاً للاشتراكية بينما هذا الإلتناء هو حالة كيانية مستمرة بغض النظر عن النظام السياسي والإجتماعي المطلوب في أي مرحلة أو ظرف.

وفي المرحلتين: التحررية والاجتماعية، كانت الأطروحة القومية ضعيفة الاقتران أو الوضوح في العلاقة مع ثلاث مسائل: الاسلام، الديمقراطية والوطنية. فقد غابت هذه المسائل عموماً عن الأطروحة القومية أو بشكل ضعيف ومحدود قياساً على الجانبين التحرري والاجتماعي.

إن الأطروحة القومية العربية بحاجة لإعادة إستنهاض جديد يقف على ثلاث ركائز أساسية:

*تأكيد دور الدين في الحياة العربية وأهمية البعد الاسلامي الحضاري في الثقافة العربية..

*التلازم مع الديمقراطية كهدف سياسي للحركات القومية وكأسلوب عمل للحكم والمعارضة معاً...

*الإطلاق من ان الوطنية لا تتناقض مع القومية وبأن الإتحاد التكاملية التدريجي بين الوطنيات العربية هو

المدخل السليم لبناء وحدة المجتمع العربي..

وبدون أي من هذه الركائز، ستبقى الأطروحة القومية عرجاء وعاجزة عن النهوض بالأمة العربية مما هي

عليه من تجزئة وتخلف واستبداد.